

رواية “الحماقة كما لم يروها أحد”: التاريخ الموازي للجزائر

كتبه أسماء رمضان | 21 أكتوبر، 2020



“كان زمنًا غريبًا غرابة العدالة في دولة سَفّاح، وكغربة المنطق في دولة رسمتها على لوحة الحماقة يد العبث، تمامًا كما فعلت حين ابتكرت بلدًا من فرط تقديسه لماضيه، جعل تاريخه على جنبٍ وظيّن عليه لئلا يدنّسه أحد، فلا استفاد منه في حاضره، ولا تَخَلَّص منه لاحقًا لينطلق صوب مستقبله”.

ماذا يحدث حين تتسلط علينا أنظمة القهر والاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي؟ وقتها إما يتظاهر الشعب بالرضا والقبول حفاظًا على سلامته وينخرط في شؤون العائلة ومتابعة مباريات كرة القدم أو يحاول جاهدًا أن يتخلل الموقف العام الصامت ليحدث صخبًا واعتراضًا، بالنسبة للفن فإنه ينشغل بالتدوين، فلكل ثورة أدباؤها وحتى محاولات المقاومة تُخلد وتبقى إرثًا حتى لا تطالها يد التقادم ولأن رسالة الأدب تتجاوز الحيز الجغرافي فإنها تنقل التجربة برمتها من الحدث الواقعي إلى التخيل، أما المسافة الفاصلة بين الواقع والخيال فهي ما يمنح تلك التجربة مغزاها.

في تلك المسافة الفاصلة تحديدًا يتقن الروائي الجزائري سمير قسيمي كتابة أعماله، ففي روايته الأخيرة “الحماقة كما لم يروها أحد” يستعين بالفانتازيا، حيث يتحرر من قيود الشكل والمنطق ويرتكز بشكل كلي على إطلاق سراح الخيال، إذ يخضع عالمه الروائي لقوانين فيزيائية مختلفة عن تلك التي تحكم العالم الذي نعيش فيه.

في أذهاننا كشعوب عربية ترتبط صورة الجزائر دومًا بحرب التحرير الشعبية وبلد المليون ونصف شهيد، والحقيقة أن هذه الصورة حقيقية بالمعنى التاريخي، لكن الواقع في الجزائر صار يختلف عن هذه الصورة، وهذا ما يحاول الكاتب الجزائري سمير قسيبي أن يخبرنا به في روايته، فبلد المليون شهيد أضحى مجرد كيان شكلي منخور حتى النخاع تتحكم فيه عصابة من المستبدين والحمقى.

الفضاء الثقافي في الدول الاستبدادية يكون خاضعًا للسلطة

منذ صفحات الرواية الأولى يتبع قسيبي نهج العبثية والتهكم التي تطاله شخصيًا، فقبل الحديث عن الجزائر نرى رسالة يبعثها أحد الناشرين إلى كاتب رواي يخبره من خلالها أن روايته جميلة وممتعة بشكل هائل لكنها لن تُنشر، فبسببها قد يُسجن الناشر أو يواجه البطالة، لذلك وعوضًا عن روايته الجميلة عليه أن يكتب عملًا آخر بعيدًا عن حياة الناس الواقعية ليأتي رد الكاتب بأنه لم يكن يقصد كتابة نص مقلق لكن على العكس تمامًا فكل ما أرادته هو كتابة مشاهد طريفة قد تضحك القراء فتجعلهم يتناسون حقيقة أنهم يضحكون على أنفسهم كل يوم، فلماذا ذعر الناشر؟

ربما يكون ذلك قد حدث لأن الفضاء الثقافي في الدول الاستبدادية يكون خاضعًا للسلطة وإذا أراد أحد الكتاب أن يتجاوز السلطة السياسية أمامه طريقان لا ثالث لهما: إما الخضوع لتلك السلطة وإما الثورة عليها، لكن قسيبي في ثنايا روايته لم يسلك هذين الطريقين واختار لنفسه مسارًا مختلفًا لأن الثورة والخضوع لم يكونا مجديين، هذا المسار هو العبث واللامنطقية وقلب الأحداث رأسًا على عقب.

التاريخ يعيد نفسه إما كمأساة أو كمهزلة

في روايته "سلام ترولار" كان قسيبي يحكي عن ظاهرة اختفاء الأبواب من البلاد واختلاط العام بالخاص لتلجأ الدولة العميقة بعد ذلك إلى تعيين البواب جمال حميدي في سدة الحكم كواجهة فقط من أجل تنفيذ أوامر السلطة العسكرية، في الجزء الأول من رواية قسيبي "الحماقة كما لم يروها أحد" ندرك أن رواية سلام ترولار لم تكن سوى حلم من أحلام حميدي لتنتقل هنا صفة الكاتب وتبدأ أحداث مختلفة تمامًا.

يقول قسيبي لموقع "نون بوست" إنه هدم كل رواية "سلام ترولار" في أول صفحتين من الرواية، إذ بدت فقط كحلم لأحد المواطنين المهمشين الذين يعيشون في حي الدوق دي كار، لكن استمرت معنا بعض الشخصيات لتحكي تاريخ الجزائر للمرة الثانية وبالفعل تتعرض البلاد هذه المرة لأزمة جديدة

وهي انعدام قدرة الشعب على القراءة، إذ استيقظ الجميع بعد وفاة الرئيس والرجل الضئيل على كارثة عدم قدرتهم على القراءة أو الكتابة، وهنا قرر المجلس العسكري أن يعين رئيسًا يمكنه القراءة فلم يجدوا أمامهم إلا الأحبب سالم الجمل الذي كان يعمل لئلا قبل تعيينه رئيسًا وهرب من السجن مؤخرًا، ونتذكر هنا مقولة ماركس الشهيرة “التاريخ يعيد نفسه في المرة الأولى كمأساة وفي الثانية كهمزة”، فحق حين كانت هناك فرصة أخرى لتصحيح أوضاع البلاد لم يتغير شيء!

الهامش في مواجهة المركز

يخبرنا الكاتب سمير قسيمي أنه اهتم في روايته بالحديث عن الهامش والمهمشين وهو ما نراه واضحًا في شخصيات الرواية وفي حياتهم، وفي الوقت الذي اتسمت فيه شخصيات “سلام ترولار” بالقبح الشديد، فشخصيات حماقة يمكن أن نقول إنها غير مرئية، نقاط صغيرة في بحر مضطرب تستخدم السلطة السياسية فقط حين تحتاج إليهم، هناك على سبيل المثال إبراهيم بافالولو الذي يعمل موظفًا حكوميًا بإحدى المؤسسات منذ ثلاثين عامًا ومع ذلك لم يكن أحد يعرفه في العمل حتى الحراس وكأنه شبح يذهب ليؤدي عمله للنظام ويعود دون أن يراه أحد.

تشكل السلطة الاستبدادية شعبها كما يشكل الخباز عجينته الطيبة، وهذا ما نقله لنا قسيمي في روايته ببراعة شديدة

أبطال حماقة يعيشون حياة مكررة، يوم واحد يتكرر يوميًا ولم يورق مضجعهم في الحياة إلا الاستدعاء الحكومي، لا يتحدثون في الشؤون العامة ولا يقرأون أبدًا ولا يفكرون، فقد توقف عقلمهم عن العمل منذ زمن بعيد ولم يعودوا يتذكروه، فقط يمارسون حياتهم بأدنى درجات الإنسانية خوفًا من السلطة التي حرصت على تكوينهم بهذا الشكل، ففي أحد مقاطع الرواية يقول مدير الشرطة “القهر وحده لا يكفي لخلق شعب خنوع ولكن الإفراط فيه ينتهي دائمًا إلى الثورة التي عادة ما تكون ثورة عرجاء بلا رأس ولا حياة فيها فتقلب نظامًا فاسدًا من أجل أن تولي آخر أكثر فسادًا منه”.

تشكل السلطة الاستبدادية شعبها كما يشكل الخباز عجينته الطيبة، وهذا ما نقله لنا قسيمي في روايته ببراعة شديدة، كانت شخصيات الرواية انعكاسًا واضحًا للقابعين في الحكم مجموعة من الحمقى، فلا يمكن أن ننسى أبدًا حين كان جمال حميدي يرغب في أن يكسب اليانصيب وهو ما جعله يستدين من جميع جيرانه وينفق جميع أمواله من رواياته التافهة التي كتبها باسم مستعار.

يقول قسيمي في روايته على لسان أحد العسكريين: “في بلد الأميين لا تحتاج لتقرأ حتى تصبح سيدهم، كل ما تحتاجه هو أن تدرك أنهم جهلة وتجعلهم يتصورون أنهم غير كذلك، في مثل هذا البلد ليس ثمة أفضل من شعب أحمق يتوهم الذكاء ليحملك على ظهره معتقدًا أنك من تحمله”.

لماذا الحمافة كما لم يروها أحد؟

كعادته يكسر قسيمي جميع التوقعات ويقلب الصورة رأسًا على عقب، تمامًا كأنك تلعب لعبة تكوين الأشكال إذ ما تلبث أن تنتهي من شكل حتى تفاجئك اللعبة بقطعة غير موجودة لتعيد الكرة من جديد، لكن لماذا الحمافة كما لم يروها أحد؟ لأن الحمافة لا يمكن أن تروى لكنها فقط تعاش، فإذا كنت ستحكي عن مهرجي النظام من ساسة وكتاب وإعلاميين ومثقفين لا يمكنك أبدًا أن تكتب عن هؤلاء إلا حين تتحدث عن الحمافة.

قسيمي أراد من روايته الأخيرة أن يؤكد لنا أن القابعيين في السلطة السياسية يرتدون أقنعة لا تنتهي، قناعًا وتحت قناع

لماذا اختار قسيمي أن تمنحي قدرة الشعب على القراءة والكتابة؟

لأنه أراد أن يستهزئ بالسلطة التي تكتب التاريخ وتحكي فيه عن بطولاتها وإنجازاتها العسكرية، فبعد أن فقد الجميع القدرة على القراءة والكتابة، كيف سيكتب التاريخ؟ وكيف سيحكي العسكر عن إنجازاتهم؟، تلك أسئلة لا يمكن أن نجد لها جوابًا إلا الحمافة.

في النهاية، يمكن القول إن قسيمي أراد من روايته الأخيرة أن يؤكد أن القابعيين في السلطة السياسية يرتدون أقنعة لا تنتهي، قناعًا وتحت قناع، وفي كل مرة يتمكنون من النجاة ويجدون مخرجًا من ورطتهم في بلد يتصارع شعبه من أجل أن يكتشف نفسه، وفي النهاية يتركنا قسيمي معقلين دون أن نجد إجابة لسؤال مهم: من يصنع من؟ هل السلطة الشمولية هي التي تخلق الشعوب المقهورة؟ أم أن تلك الشعوب هي التي تبتكر جلاديها؟

رابط المقال : <https://www.noonpost.com/38670>